الفكر الديني في عصر الآباء
(المسيحية الأفلاطونية)

د. حسن حنفي

الكلمات المفتاحية: حسن حنفي، الفكر الديني في عصر الآباء، المسيحية الأفلاطونية، الغنوصية.

منذ ظهور المسيحية في القرن الأول الميلادي، تطور الفكر الديني، وانتقل إلى مرحلة ثانية في العصر الوسيط حتى بدايات عصر النهضة والعصور الحديثة، وواكب هذا التطور زوال المدن المستقلة اليونانية وبداية عصر الإمبراطوريات. قلّ ارتباط الإنسان الديني — بين الآباء والأجداد — وأصبح الدين شخصيًا. واستمر أثر الديانات الشرقية والنحل الصوفية على الفكر الديني في مرحلته الجديدة لدرجة أنه تصعب التفرقة بين الدين الشرقي، والدين اليوناني، والدين المسيحي.

فالغنوصية مثلًا نحلة صوفية، شرقية، يونانية، مسيحية في آن واحد — من الكلمة اليونانية "غنوسيس" أي المعرفة. غايتها الوصول إلى الله عن طريق الإشراق الباطني، وبكل ما في النفس من حدس وعاطفة وخيال. وبدايتها على ما يقول دعاتها وحي أنزله الله وتناقله المريديون سرًا، وقادرة على كشف الأسرار الإلهية وتحقيق نجاة البشر. في قمة الكون يوجد الله المفارق الذي يتعالى عن الإدراك الحسي والعقلي، وتصدر عنه الأرواح، زوجًا زوجًا، ذكرًا وأنثى، وتقل ألوهيتها كلما ابتعدت عن المصدر الأول. أراد أحدهم الارتفاع إلى مقام الله فطرد من العالم المعقول، ومن هذه الخطيئة صدرت أرواح شريرة كما صدر العالم المحسوس، عالم الشر والنقص والمادة والأجسام. النفس حبيسة فيه وقادرة على الخلاص منه بتأثير النجوم، والناجون قليلون وهم الروحيون من أصل إلهي. الغنوصيون صفوة البشر في مقابل الماديين الذين تعوقهم المادة عن الصعود إلى العالم الروحي والحيوانيين القابلين للارتفاع والسقوط. وقد يتم الخلاص من الجسم، وقد يطلق له العنان يفعل ما يشاء نظرًا لأنه متميز عن جوهر الروح. وواضح أثر الثنائية الفارسية القائلة بإلهين إله الخير وإله الشر من أجل تنزيه الله عن دنس المادة، وأثر أفلاطون وثنائيته بين البدن والنفس. ولما كانت المسافة بعيدة بين المبدأين وصفوا "الأيونات" التي تصدر عن الله تدريجيًا كوسطاء بين الله والعالم. وهي تشبه ألوهية الكواكب عند أفلاطون.

وقد امتدت الغنوصية إلى الفكر اليهودي عند فيلون (30 ق.م–50م)، الذي أوّل اليهودية والتوراة تأويلًا روحيًا، صوفيًا، رمزيًا على نحو أفلاطوني. فالعالم المخلوق في سفر التكوين هو عالم المثل. ثم صنع منه الأرض وهو آدم، ثم الحس وهي حواء، ثم النفس ذات الكبرياء وهو هابيل، ثم النفس الشريرة وهو قابيل. ويفسر عبور البحر الأحمر على أنه خروج النفس من أسر البدن...إلخ. كما عمد إلى التفسير العددي الفيثاغوري، فالواحد هو العلة الأولى، والإثنان انقسام الواحد إلى الخير والشر...إلخ. ومع ذلك فالله مفارق العالم، خالق له، ومعنى به، لا يمكن وصفه لأنه لا يقع تحت الحس وليس موضوعًا للعقل. وكل ما ورد في التوراة من وصف له، إنما هو تشبيه وموضوع للتأويل. وهو إله الناس جميعًا وليس إله بني إبراهيم وإسحق ويعقوب أي إله العلم والطبيعة والزهد، وهي المصادر الثلاثة لمعرفة الله، والله هو أيضًا شمس الشموس، أو الشمس المعقولة للشمس المحسوسة كما هو الحال عند أفلاطون. صنع الله العالم بمحض خيريته. يجمع بين الرحمة والعدالة حتى يخلص الناس كرمًا وجودًا واستحقاقًا، والرحمة تسبق العدل كما هو الحال عند الأشاعرة.

الله صانع للعالم طبقًا لعلية مطلقة وهو معني بالكون طبقًا لعلية نسبية نظرًا لوجود قوانين الطبيعة وحرية الإنسان. العلية الأولى مباشرة، والعلية الثانية غير مباشرة. وبين الله والعالم يوجد وسطاء حتى يستطيع الإنسان الصعود إلى الله تدريجيًا. وقد سماهم اليونان آلهة وأبطالًا وسماهم موسى ملائكة ورسلًا؛ والوسيط الأول "اللوجوس logos" أو الكلمة، والثاني الحكمة، والثالث آدم، والرابع الملائكة، والخامس الجن. وقد يكون هؤلاء الوسطاء مجرد آثار لله أو أحوال للنفس، وغاية النفس الوصول إلى الله والاتحاد به كما هو الحال لدى كل النحل الصوفية. ويتم ذلك على أربعة درجات في المعرفة.

الأولى: ناقصة بالنظر في مصنوعات الله وهي معرفة الأكثرية.

الثانية: معرفة عن طريق الوسطاء.

الثالثة: معرفة تدرك اللوجوس كوسيط أعظم.

الرابعة: إدراك الله ذاته وهي خاصة بأهل الكمال مثل موسى.

وترقى النفس بالزهد والتقوى الباطنة، والنبوة من عند الله في حين أن العرافة قدرة إنسانية، والله وحده يعلم المستقبل ويصنع المعجزات، ولا تعني المعجزة أبطال قوانين الطبيعة التي هي العقل الإلهي بل تعني حدوث شيء لا يتوقعه الإنسان أسير الظنون.

وامتدت الغنوصية إلى الفكر المسيحي في القرون الأربعة الأولى، خاصة في سوريا وروما، حيث ظهرت أولًا في السامرة ثم في الإسكندرية، ففي السامرة ظهر سمعان الغنوصي، الذي سمع الحواريين فيليوس، وبطرس، ويوحنا، وادعى أن الإله ظهر فيه. وفي القرن الثاني ظهر مسيحيون غنوصيون مثل باسيليدس، وفالنتين بالإسكندرية، ومرقيون بآسيا الصغرى، يعتمدون على قوة العاطفة الدينية، وينادون بضرورة تخليص النفوس من الأهواء، وأن المسيحية خير طريق إلى ذلك. وكوّنوا أول مذهب فلسفي مسيحي يقوم على ثنائية متعارضة بين التوراة والإنجيل، فالإله في التوراة منتقم جبار، بينما في الإنجيل رحيم حليم. وألّفَ مرقيون كتاب **الأضداد** ليثبت بالحجج النقلية تغاير الإلهين والشريعتين. إله التوراة صانع العالم المحسوس، عنى باليهود وحدهم، وقهر أعداءهم في حين أن إله العهد الجديد هو الإله الأعلى الحق، خالق العالم المعقول، الإله الواحد. الشريعة اليهودية قائمة على أن العين بالعين، والسن بالسن. والشريعة المسيحية قائمة على أن من لطمك على خدك الأيسر فأدر له الأيمن، وأن من طلب معطفًا فاعطه معطفين. لذلك رفض الغنوصيون التوراة، ووجدوا في الأناجيل ما يشبع تطلعاتهم الروحية خاصة في الموعظة على الجبل وبصدور العالم عن الله عن طريق المتوسطات. وهي ثمانية مجردة شخصية عند باسيليدس مثل الحكمة والعدالة والسلام. ومن الحكمة صدرت الملائكة، ومن الملائكة صدرت السماء الأولى، ومن السماء الأولى صدرت الثانية حتى ثلاثمائة وخمسين سماء، عدد أيام السنة. وعند فالنتين صدرت الحياة الإلهية زوجًا لا فردًا، فلما أرادت الحكمة المخلوقة التشبه بالإله غير المخلوق صدر عنها كائنًا مشوشًا نزل المسيح لتخليصه من الشرور. وعند بعض الغنوصيين لم يتألم المسيح ولم يمت بل كان الشيطان مكانه. قرر البعض منهم الرهبنة خلاصًا من شرور الجسم، ورأى البعض إباحة كل أفعال الجسم وإعفاء النفس من كُلِّ مسؤولية. ثم بدأ المحامون عن المسيحية رفض الغنوصية وتخليص المسيحية منها، وتفنيد أن للعالم صانعًا مغايرًا لله، وأن للنفس حياة سابقة على البدن، وأن الخطيئة قد ارتكبت سلفًا، وأن المادة رديئة بالذات، وأن الأجسام لا تبعث. ومع ذلك لم تتخلص المسيحية تمامًا من آثار الغنوصية.

وفي القرن الثالث ظهرت فرقة مسيحية أخرى هي المانوية نسبة إلى مؤسسها ماني بن فاتك (215– 272 م). الذي جمع بين الدين الثنوي الفارس القديم وبين الغنوصية وبين المسيحية، وأعدم لخروجه على الزردشتية. قال بأن للعالم مبدأين: النور والظلمة، ولكن باسم دين جديد يقوم على التأليف بين الكتب الدينية السابقة. وجعل الأنبياء أربعة: بوذا، وزردشت، والمسيح، وماني نفسه. ويمتاز ماني عليهم بالكتابة دون الاكتفاء بالموعظة، فهو أعظمهم، يتلوه المسيح، وهو الفارقليط الذي أعلن المسيح قدومه من بعده. لكي يكمل وحيه، ويختتم رسالته، كان يسخر من صلب المسيح، ويثبت أن الشيطان قد صلب مكانه. والناس لديه طوائف ثلاث: الصديقون المختارون وهم المانويون علمًا وعملًا، والمستمعون علمًا دون العمل، والمخطئون علمًا وعملًا. الطائفة الأولى رهبان ناجون، والثانية يتزوجون إمرأة واحدة دون إنجاب، والثالثة هالكون. وقد انتظم المانويون في كنيسة يرأسها الإمام ومقره بابل. ويليه إثنا عشر معلمًا مثل الحواريين الإثني عشر. يليهم إثنان وسبعون أسقفًا ثم جماعة الكهنة وخدام المعبد. وكان لهم سران يمنحان للصديقين المعمودية والقربان. وكانت لهم أعياد وطقوس وظلت حتى القرن الثالث عشر ترجمت كتبها إلى السريانية، ونقل عبد الله بن المقفع كتب ماني، ولخص مؤرخو الفرق المسلمون أقوالهم مثل ابن النديم في **الفهرست** والشهرستاني في **الملل والنحل**.

انتشرت المسيحية في بيئة يونانية، ودعا الحواريون إلى الدين الجديد وسط المذاهب والفرق اليونانية. وكان أشهرها أربعة: الأفلاطونية، والرواقية، والأرسطية، والأبيقورية. ولاقت جميعها حظوةً عند الحواريين نظرًا لإمكانية استعمالها كأدوات لنشر الدين الجديد. فالأفلاطونية نزعة روحية تقوم على إثبات عالم المثل المفارق، وعلى تطهير النفس من أدران البدن بالرغم مما فيها من تعدد للآلهة، وقدم المادة، وإنكار الخلق، والتناسخ، وإلغاء الأسرة، وتحديد النسل، وإعدام المعوقين.

أما الرواقية فإنها مدرسة تقوم على إثبات الفضائل والدعوة إلى محبة الله والتأكيد على أهمية الحياة الروحية والتسليم بأحكام القدر في مواجهة غوائل الإمبراطورية الرومانية وشرورها. وبالرغم من قولها بوحدة الوجود، وبالمادية المطلقة، والضرورة التي لا مفر منها، وفناء الإنسان بالموت، وجواز الانتحار إلا أنها كانت مادة للمفكرين المسيحيين الأوائل لنشر الدين الجديد في مسيحية رواقية تشبه إلى حد كبير المسيحية الأفلاطونية. أما الأرسطية فلم تكن شائعة في القرون الأربعة الأولى، إلا داخل جدران المدارس. وكانت آراؤها تبدو مخالفة للدين الجديد، مثل المحرك الأول الذي لا يتحرك الذي لم يخلق العالم ولا يعتنى به، ولا يعلم الموجودات، ومثل المحرك لكل فلك وبالتالي تتعدد الآلهة ومثل النفس صورة للبدن وليست متميزة عنه وبالتالي فناؤها بفنائه، ومثل نقده لأفلاطون ومثال المثل وبالتالي غاب أساس الأخلاقية. هذا بالإضافة إلى ميل المدرسة إلى العلم الطبيعي فشاع أن أرسطو طبيعي ملحد. أما الأبيقورية فلم تلق قبولًا حسنًا مثل الأرسطية نظرًا لماديتها الشاملة لله والنفس، وإنكارها الخلود، وقصر الحياة الإنسانية على طلب اللذة. ثم بدأ المفكرون المسيحيون الأوائل في الدفاع عن الدين الجديد في هذه البيئة اليونانية عن طريق رسائل يوجهونها إلى الأباطرة الرومان لرفع الظلم والأذى عن كاهل المعتنقين للدين الجديد الذين تحولوا من الوثنية إلى المسيحية.

وظهر فريقان: الأول يعتمد على الفلسفة اليونانية ويبين مدى الاتفاق بينها وبين الدين الجديد. فالفلسفة اليونانية أعلنت الحقائق المسيحية، والمسيحية تأكيد لحقائق الفلسفة اليونانية. والثاني يرفض الفلسفة اليونانية ويبين مدى الاختلاف بينها وبين الدين الجديد. الفلسفة اليونانية بدعة وثنية في حين أن العقائد المسيحية حقائق إلهية. واستمر هذان التياران عبر كل مراحل الفكر الديني الغربي، مثل الفريق الأول المتصالح مع الفلسفة اليونانية جوستين، واثناجوراس، ومثل الفريق الثاني المعادي للفلسفة اليونانية تايتان. وقد دارت موضوعات الفريقين حول نقد الوثنية، وشرح الإيمان المسيحي، والإشادة بالأخلاق والفضائل المسيحية.

دوّن جوستين ثلاثة كتب للدفاع عن المسيحية؛ الأول **احتجاج مرفوع إلى الامبراطور أنطونان وولديه ومجلس الشيوخ والشعب الروماني** لتحميل الرومان تبعة قتل المسيحيين دون جرم ارتكبوه إلا إيمانهم بالدين الجديد، والثاني كتبه لنفس الغرض بعد استشهاد فريق آخر من المسيحيين، والثالث **حوار مع تريفون** يحكي فيه سيرته الذاتية وتحوله من الوثنية إلى المسيحية بين فيه أوجه الاتفاق بين المسيحية والفلسفة اليونانية مثل إثبات العالم المعقول، وخلود النفس، وحياة الفضيلة. كما بين أوجه الاختلاف بينهما في موضوعات الألوهية والحرية والثواب والعقاب. فإذا كانت الفلسفة هي العلم بالموجود الحق والغاية منها تحقيق السعادة فإن الموجود الحق هو الله، وتتحقق السعادة بمعاينة الله كما هو الحال عند أفلاطون. وهناك ثلاثة مراتب لمعرفة الله:

الأولى: المعرفة الطبيعية العقلية اليونانية التي يتوصل منها الإنسان إلى معرفة أن هناك إلهًا موجود علة ما عداه.

الثانية: علم الوحي لأن النفس تواقة إلى أن تعلم إلهًا قريبًا منها تحبه ويحبها، وهو علم يعطي معرفة اله بذاته وأن لم يكن يقوم على أسلوب برهاني.

الثالثة: استنارة النفس الباطنية بالروح القدس وهي المعرفة الكاملة التي أتت بها المسيحية إضافة على معرفة اليونان ومعرفة الشرق.

ويرجع التشابه بين الفلسفة اليونانية والدين المسيحي إلى أن الفلاسفة قد أخذوا علومهم عن التوراة بطريق مباشر أو غير مباشر. فاستمد أفلاطون تصوره لصنع الله العالم من مادة غير معينة من سفر التكوين، واستمد الرواقيون نظريتهم في الاحتراق من نار موسى، وما قاله الفلاسفة والشعراء عن النفس والمعاد مأخوذ أيضًا من الكتب المقدسة.

فلاسفة اليونان هم الذين يقولون كلام الأنبياء وليس الأنبياء هم الذين يقولون كلام الفلاسفة، وأحيانًا أخرى يعتبر تاتيان أن مذاهب اليونان مستمدة من هذا النور العقلي السابق الذي جسده المسيح. هم اجتهدوا رأيهم فأصابوا وأخطأوا، اعتمادًا على العقل الطبيعي في حين أن المسيح قد أعطى مرة واحدة من الله، لا خطأ فيه ولا اجتهاد كل ما قيل قبل المسيح، مثل وجود الله، وخلود النفس، وحياة الفضيلة ومن عاش كذلك قبل المسيح يكون مسيحيًا مثل سقراط وهرقليطس.

وسار أثيناجوراس في نفس التيار، وكتب **التماس من الفيلسوف المسيحي اثيناجوراس الأثيني لأجل المسيحيين إلى الإمبراطور مارقوس أورليوس وابنه** في القرن الثاني مطالبًا المصالحة مع الإمبراطورية، فالصراع لا يفيد والاضطهاد ظلم، فقد بين جوستين اتفاق الفلسفة والدين اعتمادًا على أفلاطون لم يقل بأخذ اليونان عن التوراة بل بقدرة العقل وحده على الوصول إلى الحقائق الإيمان. كما فطن شعراء اليونان إلى إيمان المسيحيين بإله واحد خالق بالرغم من اضطرابهم في طبيعة الله في حين أن الوحي المسيحي أكمل التصور، وأثبت الله ذاتًا وصفاتٍ وأفعالًا، كما حاول إثبات وجود الله بالعقل الطبيعي اعتمادًا على وجود النظام في العالم، ثم إثبات وحدانيته اعتمادًا على أن البسيط لا يكون إلا واحدًا وعلى أن المخلوق لا يكون له إلا خالقًا واحدًا.

وازدهر هذا اللون من الدفاع عن المسيحية في الإسكندرية عند كليمان السكندري (150- 217 م) في مدارس حرة، كان الأساتذة يتقبلون الطلاب فيها بلا أجر، وقد اقتصر التعليم أولًا على الدين ثم إيجاد البراهين عليه بالفلسفة، ووضع مصنفاته بناء على مشروع فكري يقوم على أن المرشد السماوي، اللجوس، هو "الهادي" حين يدعو الناس إلى النجاة، وهو "المؤدب" حين يعالج النفوس ويهذبها، وهو "المعلم" حين يلقنها الوحي، فكتب "الهادي" للدفاع عن الدين عند الوثنيين وليهديهم إلى الإيمان، وألّف "المؤدب" في شخصه وتعليمه. وهو المسيح المثل الأعلى وفي كتاب "المعلم" الذي لم ينته من تدوينه أراد تعليم المسيحيين الحقيقة الكلية والأخلاق الكاملة. دافع عن الفلسفة ضد منتقديها وعن ثقافته الخاصة ضد إيمان العامة، فالفلسفة خير وسيلة لدرأ مخاطر الأساطير والخرافات، هذه المعارف التي كانت ضرورية لليونان لممارسة العدالة وهي ضرورية للمسيحيين لممارسة التقوى، وضرورية لمن يحاول إيجاد البراهين على صدق الإيمان. الله مصدر كل حقيقة أولية مثل الوحي وثانوية مثل الفلسفة، الفلسفة دين اليونان، والمسيحية فلسفة المسيحيين فالدين لا يقل عن الفلسفة والفلسفة لا تزيد عن الدين. واجب المسيحي المثقف هو التفقه في الدين، ولا يتم ذلك إلا بالفلسفة، والأفلاطونية خير فلسفة، وأفلاطون هو صديق الحقيقة، الملهم من الله كل عقل فاضل مستقيم يؤمن بالله، وكل مؤمن بالله قادر على الاستدلال على وجوده والبرهنة على كماله، نظام العالم دليل على وجود الله والقوى الفاعلة فيه دليل على العلة الأولى، والنفس الإنسانية مرآة الله لما فيه من عقل وإرادة ولما كان الله هو الموجود الكامل فإن من صفاته الوحدانية ولا يمكن تعريف ماهية الله، لأن الله لا جنس له ولا نوع فهو الكل الشامل، لا تركيب فيه ولا يقبل القسمة أو حتى الوصف باللامتناهي، لا امتداد، ولا شكل، ولا هيئة له، ولا يطلق عليه إلا أسماء للتقريب إلى الأذهان مثل الواحد والخير والروح والكائن والخالق والرب، أما النفس الإنسانية فمادية على طريقة الرواقيين ولكنها جنس لطيف لدرجة اللاجسمية لما بها من فكر وإرادة يؤهلانها لمعرفة الله ومحبته، وفي كل إنسان قوة طبيعية تجعله قادرًا على المشاركة في الكلمة الإلهية؛ وبالتالي قادرًا على تأسيس الأخلاق فتبدأ الحياة الفاضلة باتباع سننها، حتى استعمال العقل والإرادة.

ثم حدث رد فعل مضاد عند تاتيان بالرغم من أنه كان تلميذًا لجوستين وبعد استشهاد أستاذه غادر روما إلى الشرق وانتهى إلى الغنوصية كتب **خطاب إلى اليونان** قبل ارتداده عن المسيحية يهاجم الفلسفة اليونانية لما فيها من وثنية على عكس بساطة الكتب المقدسة ووضوحها وانبائها بالمستقبل وتوحيدها وأخلاقها، لم يبتكر اليونان شيئًا ذا قيمة، لا في الفن، ولا في الأدب، ولا في الفلسفة بل قلدوا غيرهم، وأخذوا عن موسى الفلسفة تناقضًا، والطب سحرًا، والفن دعارةً، والأخلاق فسادًا، كان أفلاطون نهمًا، وأرسطو متملقًا! على الرغم من دفاع تاتيان عن التوحيد وتفنيده الشرك والحلول ونقده التنجيم والسحر والأسرار الوثنية، فإنه يستعير من الرواقيين بعض الأفكار لتأييد المسيحية.

واستمر الدفاع عن المسيحية عند أوريجين السكندري (185- 254م) تلميذ كليمان وبحث مثل استاذه الصلة بين العقل والوحي، وانشغل بموضوع البعث، وأبدى تأثرًا بأفلوطين عن طريق أستاذه أمنيوس ساكاس. أهم كتبه **المبادئ**، الذي عرض فيه مذهبه اعتمادًا على العقل وحده، ويعني بالمبادئ والحقائق الأساسية، وأيضًا بدايات الأشياء وأصولها. وله أيضًا **الرد على سلس** في هجومه على اليهودية والمسيحية، وافتراءه على موسى والأنبياء والمسيح، وسوء فهم للكتاب المقدس، وإدخال الأساطير الغنوصية في العقائد المسيحية فالعقيدة واضحة وصريحة ولا داعي لإدخال الفلسفة، أما حين تكون العقيدة متشابهة حينئذ تتدخل الفلسفة للفهم والتأويل. فمثلًا الله في العهدين القديم والجديد واضح لا لبس فيه، أما طبيعته وماهيته فتحتاج إلى العقل والبرهان كما أن الحرية والمسؤولية والثواب والعقاب موضوعات ثابتة، أما أصل النفس فتحتاج إلى أعمال العقل. الملائكة والشياطين واضحة ولكن طبيعتهم متشابهة. العالم مخلوق، له بداية وله نهاية، ولكن ما قبل العالم وما بعده في حاجة إلى تأمل، وكذلك نفوس الكواكب مهمة الفلاسفة الروحيين أو الغنوصيين هذا التأويل والنظر والتأمل للعثور على المعاني الباطنة وأحكام المتشابهات ويمكن إدراك وجود الله بطريقتين: الأول العالم الخارجي، والثاني الضمير أو كما يقول القرآن: {**وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون**}[1] وهو روح محض، ليس كمثله شيء وصفاته في الكتاب المقدس قياس للغائب على الشاهد، ويمكن أن تفهم بالمعنى الرمزي وليس بالمعنى الحرفي، والله خالق بالرغم من قدم المادة من أجل التوفيق بين العقيدة المسيحية والفلسفة اليونانية خاصة أرسطو الذي يقول بقدم المادة والحركة وهو خلق ضروري لا حرية فيه ويعني قدم المادة أنها مخلوقة من عدم دون ابتداءً. وبالتالي يظل الخلق فعلًا لله فيها والنفس مستقلة عن البدن. لا مادية باعتبارها موطن الفكر وهي صاحبة أفعال حرة بشهادة الوجدان، ولا تناقض بين حرية الإنسان وسبق علم الله بالحوادث والأفعال لأن الجبر غير معقول والعقل جامع مشترك بين الله والإنسان. كما أن هناك فرقًا بين علم الله بالشيء وإرادته له. وعلمه بالمستقبل لا يعني إرادته ومن ثم يترك المجال لحرية الإنسان في الفعل وإمكانية للثواب والعقاب بناء على استحقاق الجزاء. وإذا كانت النفوس حرة فإنها خالدة نظرًا لتشابهها في الجوهر مع الله، وما دام هناك خلود فهناك بعث للأجسام، فالأجسام ليست رديئة في ذاتها. وإذا كانت النفس متصلة بالجسم في الدنيا فليس ببعيد بعثه في الآخرة، بل أنه من العدل خلود الجسم مع النفس فقد كان أداؤها في الخير والشر، والسعادة القصوى في معاينة الله كما يقول الصوفية وقد تراجع عن بعض الآراء الغنوصية في شرحه على انجيل يوحنا مثل اعتبار أن الحياة الأرضية عقاب وبأن النفس سابقة على البدن، وبأن الحرية باقية إلى ما نهاية، وبأن الخلاص كلي وشامل بما في ذلك إبليس.

ثم حلت اللغة اللاتينية محل اليونانية في منتصف القرن الثالث، استعملها الأفارقة ثم أهل الروم، وترجمت الكتب المقدسة وكتب الوعظ والدفاع إلى اللغة اللاتينية. وكان الرومان من أمثال شيشرون، ولوركريس، وسنيكا قد نقلوا الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الرومانية تقليدًا وتبعية دون أصالة وابتكار. فظهر محامون عن الدين يكتبون باللاتينية مثل ترتيليان (165-220م) وهو محام من قرطاجة تحول إلى المسيحية، وترهب ودافع عن الدين الجديد، وبين عدم مشروعية الاضطهاد. كما نقد في كتابه **الأمم** العقائد الوثنية، عارض الفلسفة بالدين والدين بالفلسفة. فلا علاقة لأثينا بأورشليم، ولا لأورشليم بأثينا، ولا علاقة للأكاديمية بالكنيسة، ولا للكنيسة بالأكاديمية. ولا يمكن إنشاء مسيحية أفلاطونية، أو رواقية، أو جدلية فالمسيح ليس بحاجة إلى الفلسفة، الفلسفة مستمدة من التوراة، ومنها نشأت البدع المسيحية، والجدل إله للهدم وليس للبناء، ومنهج المسيحية هو استنطاق النفس، وسبر أغوارها، فالنفس تنزع بطبيعتها نحو الدين، وتظهر العواطف الدينية التي فطرها الله عليها، ومع ذلك الروح جسم لطيف، والنفس مادة لطيفة، فانية به، وخالدة بالله، خلق الله نفس الإنسان الأول ثم تكاثرت بالتوالد فالنفس في ذاتها ذكر وأنثى!

لكن الذي بز الفلاسفة المسيحيين اللاتين جميعًا هو القديس أوغسطين (354- 430م) نشأ من أب وثني وأم مسيحية وتعلم اللاتينية لغة وأدبًا، وقرأ شيشرون. انضم أولًا إلى المانوية ثم تحول إلى المسيحية بعد سماعه القديس أمبرواز في روما شارحًا إحدى رسائل

---

[1] الذاريات/ الآيات: 20-21.

بولس، اضطرب قبل ذلك لحجج الشكاك اليونان دون أن يتطرق الشك إلى عناية الله بالمخلوقات، فعاد ووجد الأدلة على أن الكنيسة تستمد وجودها من الله، ففيها تتحقق نبوءات العهد القديم، ويتمثل الكمال الروحي، وتجري المعجزات، وهي باقية بالرغم من نوازل الأيام، ولكن ظل الاعتقاد المانوي القديم في الله قائمًا، إنه جسم نير عظيم، والنفس جزء من ذلك الجسم، عشق الأفلاطونية باعتبارها نموذجًا للحياة الروحية حتى لقد أسس نموذجًا للفكر المسيحي ما زال قائمًا حتى الآن وهو المسيحية الأفلاطونية في مقابل النموذج الأبدي الثاني وهو المسيحية الأرسطية كما مثلها توما الإكويني. قرأ أفلوطين وتشبع به باعتباره أفلاطونيًّا وإن عارض بعد ذلك نظرية الفيض أو الصدور الأفلاطونية ودافع عن نظرية الخلق الدينية، وأخيرًا سمع هاتفًا باطنيًا يطلب منه أن يأخذ ويقرأ فقرأ بولس وشعر في النهاية بأنه وجد طريق الإيمان وهو في الثالثة والثلاثين. مصنفاته كثيرة منها **الرد على الأكاديميين**، والحياة السعيدة **خلود النفس، في سفر التكوين ردًّا على المانويين، في الحرية، الاعترافات، الثالثوث، شرح سفر التكوين، مدينة الله، الاستدراكات.**

ارتبطت فلسفته بحياته مثل معظم الفلاسفة الوجوديين، فالفلسفة وسيلة السعادة وهي مطلب كل إنسان، ولكي تؤدي غايتها فإن موضوعها يكون ثابتًا ودائمًا وكاملًا، وهو الخير الأعظم أي الله، لأنه وحده الثابت الكامل، طلب السعادة إذن في طلب الله، ولكن هل تستطيع الفلسفة وحدها الوصول إلى هذه الغاية؟ هنا يتدخل الدين للعون، فالمسيحية تعرض الحكمة كاملة عن الله والنفس، وتوفر الوسائل للاتصال بالله، والإيمان بالمسيحية ليس مجرد إيمان غامض، ولكنه قبول عقلي لحقائقه، مؤيدة بشهادات الصديقين والأنبياء والشهداء وبعلامات خارقة هي المعجزات، فالعقل سابق على الإيمان بمعنى البحث عن العلامات والشهادات، وهو تال للإيمان من أجل إيجاد البراهين العقلية على حقائقه. :تعقل كي تؤمن" ثم "تؤمن كي تعقل". ومن الموضوعات الإيمانية ما يقبل برهان العقل مثل وجود الله وصفاته، وخلود النفس وروحانيتها، ومنها ما يتجاوز العقل مثل التثليث الذي لا يمكن إدراكه إلا تشبيهًا، قياسًا للغائب على الشاهد، وبحثًا عن صوره في الحياة الإنسانية الفردية والاجتماعية، هناك إذن حقائق يقينية يمكن الوصول إليها.

الشك إذن موقف متناقض لأنه يطبق أخطاء الحواس وأوهام الخيالات على الحقائق العقلية الموضوعية المستقلة مثل الحقائق الرياضية، ويقيس عليها وجود الله وخلود النفس.

كان الله محور فلسفة أوغسطين حتى قبل تحوله إلى الإيمان. فهو فكرة واضحة حتى بدون استدلال عليه. ومع ذلك يستطيع العقل إيجاد الأدلة عليه مثل برهان النظام الذي يقوم على إدراك النظام والتآلف في الكون وأنه لا يكون محض مصادفة، وبرهان الحرية الباطنية حيث يدرك الإنسان أنه قادر على الاختيار الحر المستمد من حرية الله وفضله، وبرهان المعلم الداخلي الذي يشرق في قلب كل إنسان، وهو الله، والله بسيط، جوهر مفارق وإن كانت النفس تشعر به، ذاته عين صفاته منعًا للكثرة فيه، وحرصًا على وحدانيته، وما نطلقه عليه من صفات مثل العلم والقدرة والإرادة إنما هو قياس للغائب على الشاهد وتقريب للأفهام.

والمحور الثاني في فلسفته هي النفس حاملة الفكر، وهي صورة الله في الإنسان تشاركه في صفاته مثل الروحانية والوجدانية والبساطة، لا كم ولا مركز لها، بل هي كيف خالص العقل والإرادة والذاكرة مظاهرها الثلاثة، صورة الثالوث فيها. قال المانويون أن أصلها من الله فقد صدرت عنه مما يتطلب ثباتها مثل الله أو تغير الله مثل النفس. وقال الأفلاطونيون بالتناسخ، قدم النفس قبل هبوطها إلى الأرض وعودتها إليها. وهي أسطورة تمحو الاستحقاق بأن الله خلق النفس وتنفي فرديتها وتقضي على شخصيتها. وتقول المسيحية بأن الله خلق النفس وهو الأعقل نظرًا لتمايزها عن البدن. والدليل على ذلك أنها محل الحقائق، والحقائق لا تفسد ولا تفنى، كما أنها تدرك ذاتها، ومن يدرك ذاته يكون أبقى وأخلد ممن يدركه غيره. ومع ذلك يقترب أوغسطين من أرسطو أحيانًا في جعل النفس والبدن وحدة واحدة، فالنفس هو الإنسان الباطن والبدن هو الإنسان الظاهر، وتستطيع النفس الباطنة إدراك الأمور المعنوية مثل الله والملائكة والحقائق المفارقة، وتستقبل النور الباطني من الله، المعلم الداخلي وهي التي تجعل الإنسان قادرًا على الاختيار الحر، يشهد بذلك الوجدان، كما أنه ضروري للثواب والعقاب وللإرادة الحرة قانونها الخاص، إخضاع الحواس للعقل ثم إخضاع العقل لله حتى تتجه بكليتها نحو الله، ولا ينفي علم الله

المسبق حرية الاختيار ولا يعارض الفضل الإلهي الإرادة الحرة فكلاهما ضرورتان متحدتان، بل أن الفضل الإلهي أحد مكونات الفعل الحر على عكس ما قرره بلاجيوس بتأكيده على الفعل الحر دون ما حاجة إلى أي عون خارجي.

وإن كانت الأوغسطينية تدور أساسًا حول محوري الله والنفس، كما تدور فلسفة توما الأكويني على محوري الله والعالم إلا أن العالم أيضًا كان حاضرًا في فلسفة أوغسطين ولو بدرجة أقل، فليس العالم صورة الله كالنفس لأنه شتان مابين الروح الإلهي ومادة الكون ولكنه يتلقى التجليات الإلهية مثل الوحدة والحقيقة والخير والعدل والجمال؛ لذلك أصبح العالم وسيلة للتعرف على الله وإن كان وسيلة أقل فاعلية من استيطان النفس، ولا يصدر العالم عن الله صدورًا ضروريًا أزليًا كما هو الحال عند أفلوطين، فذلك يقتضي تجزأ الذات الإلهية، والله بسيط لا يتبعض، إنما خلق العالم من عدم بفعل إلهي حر، فالعالم له أول في الزمان وله نهاية فيه، فهو مخلوق فان وليس قديمًا أزليًا ولا يعني خلق الله العالم في ستة أيام المعنى الحرفي للآية، بل يعني تفصيل لحظة الخلق ومراحله. والمخلوقات على أنواع ثابتة ودائمة مثل الملائكة وفاسدة فانية مثل النبات والحيوان، أما الإنسان فإن جسمه يتبع الإثنين، ولكن روحه خالدة، وإذا كان العالم من خلق الله فإنه خير بالذات خال من الشر، فالخير لا يفعل إلا الخير، الشر في العالم نقص ووهم وخطأ في الإدراك وليس له وجود موضوعي فعلي في العالم.

وتظهر مركزية الله في فلسفة أوغسطين عندما يتعرض للأخلاق والسياسة. فالإنسان في حاجة إلى مدد إلهي لممارسة الفضيلة مزواجًا بين المسيحية والرواقية ضد الأفلوطونية والأبيقورية حيث لا يعلم الله العالم ولا تمارس إلا الحياة المادية، حياة الفضيلة هي الحياة الإلهية وجزاؤها معاينة الله والنعيم بقربه. وكذلك الحياة الاجتماعية والسياسية حياتان: حياة الرذيلة والقوة والغلبة التي لا تدوم وهي الامبراطورية الرومانية، وحياة الفضيلة والتسامح والمحبة الدائمة وهي حياة مدينة الله، مدينة الأنبياء والقديسين والشهداء، ولا لقاء ولا مصالحة بين المدينتين مدينة الأرض ومدينة السماء.

وفي نفس الإطار الأوغسطيني ولكن باستقلال عنه كون ديونيسيوس الأريوباحي في القرن الخامس مذهبًا أفلاطونيًا مسيحيًا ظل كالأوغسطينية نموذجًا حتى عصر النهضة، وهو مؤلف مجهول يقول أنه تلميذ بولس مع أن مصنفاته تشابه إلى حد كبير آراء أبرقلس والأفلاطونية الجديدة، وأهمها: **الأسماء الإلهية، المراتب السماوية أو الملائكة، اللاهوت الصوفي، المراتب الكنسية**، ويعني بالأسماء الإلهية الصفات التي تضيفها الكتب المقدسة لله، وهي أساس معرفتنا بالله نظرًا لأن المحسوسات لا تؤدي إلى علم يقيني في الأمور الروحانية المفارقة، الله وحده عالم بذاته، وأوحى إلينا علمه عن طريق الأنبياء على قدر الطبيعة الإنسانية المحدودة، ندركه في الدنيا من آثاره التي تشارك في الألوهية مشاركة غير جوهرية عن طريق إشراق الله عليها ودلالتها هي عليه. فأسماء المخلوقات دلالات عليه، ولا يوجد إسم واحد مطابق له، وبالتالي يمكن إثباتها أو نفيها، إيجابها أو سلبها. في الإيجاب تكون البداية بأسمى الصفات، وفي السلب تكون البداية بأدناها، وكلما صعدنا إلى أعلى زادت المطابقة وكلما نزلنا إلى أسفل قلت المطابقة. وأهم هذه الصفات الإلهية في الكتب المقدسة الخيرية وهي مبدأ الأشياء وأصلها، ويشمل النور والجمال والمحبة، ولا وجود للشر فيه، فالشر عدم وجود ولا وجود، ولا يصدر عن الله ولا في المخلوقات، بل أن الشياطين استحقت العقاب دون أن تكون أشرارًا. كما يصف الكتاب المقدس الله مجازًا بلغة الحركة والسكون والعظمة والمقدار والنفاذ والقرب والبعد أو بلغة أقل حرفية مثل السلام والقديسة والملكوت، أما الملائكة فتتحدث عنها الكتب المقدسة أيضًا مجازًا، وهي على ثلاثة مراتب طبقًا لكمالها وقربها من الله. وهي موجودات عاقلة بسيطة، أرواح صرفة، خلقوا قبل العالم الحسي، لكل منهم وظيفة يستمدون علمهم من الله ويوحي كل منهم العلم إلى المرتبة التالية، ولما كانت معرفة الله تتم سلبًا على نحو أفضل من الإيجاب، فإن المعرفة الحقة تكون هي المعرفة الصوفية عن طريق الذوق حتى يتحد الإنسان بالله بعد أن يجذبه الله إليه جذبًا. ومتى خلصت النفس من قيود البدن وأدران المادة استطاعت أن تصفو وتدخل في عالم النور ومقام العرفان، ومع الأنبياء والقديسين والشهداء.